(٤٦٦)

أبو حيان التوحيدي(*) والصداقة والصديق

عانى أبو حيان التوحيدى : أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء .. عانى كثيرًا من جفوة الناس وجحود الأصدقاء ، حتى قال واصفًا حاله : «لقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النِّحْلة ، غريب الخلق ، مستأنسًا بالوحشة ، قانعًا بالوحدة ، معتادًا للصمت ، ملازمًا للحيرة ، متحمّلًا للأذى ، يائسًا من جميع من أرى ، متوقعًا لما لا بد من حلوله ، فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول ، وظل التلبث إلى ذهاب !!! » .

وصف الدنيا فقال إنها : «الدار التى امتلأت بالذئاب» ! ووصف ما خرج به من صحبة الناس فقال : « لقد صحبْت الناس أربعين سنة ، فما رأيتهم غفروا لى ذنبًا ، ولا ستروا لى عيبًا ، ولا حفظوا لى غيبا ، ولا أقالوا لى عثرة ، ولا رحموا لى عَبْرة ، ولا قبلوا منّى معذرة ، ولا فكّونى من أسر ، ولا جبروا لى من كسر ، ولا بذلوا لى من نصر ».

لذلك كان لافتًا شدنى وأثار فضولى ، أن يكتب التوحيدى كتابًا عن الصداقة والصديق ، فماذا عساه يكتب فيه وهو لم يذق من الأصدقاء إلاّ كل مرارة : لقد اشتهر من أقواله فى الناس أنهم «سباع ضارية ، وكلاب عاوية ، وعقارب لسّاعة ، وأفاعٍ (جمع أفعى) نهاشة» .. وقوله عن الصداقة : «إنها للأسف مشوبة من الأزل بالحسد ، مكدرة بالحقد مهددة دائما بالخيانة ».

(*) المال ٧/ ٧/ ٢٠١٠ .

تزول الدهشة مما كتبه التوحيدى عن الصداقة والصديق ، حين نلم بالجانب الإنسانى فى فلسفته ، وتقديمه مشكلة الإنسان على كل ما عداها ، فقال فى كتابه : «الإشارات الإلهية » : «زعمت الحكماء على ما أوجبته آراؤها ودياناتها أن من الوحى القديم النازل من الله قوله للإنسان : اعرف نفسك ، فإن عرفتها عرفت الأشياء كلها .وهذا قول لا شىء أقصر منه لفظًا ، ولا أطول منه فائدة ومعنى. وأول ما يلوح منه : الزراية على من جهل نفسه ولم يعرفها . وأخلق به إذا جهلها أن يكون لما سواها أجهل ، وعن المعرفة به أبعد» .. وهذا النص يدل بوضوح كما قال الأستاذ الدكتور الراحل زكريا إبراهيم فى كتابه عن التوحيدى (أعلام العرب ٣٥) ـ يدل على أن أبا حيان قد وجد فى «معرفة النفس» أسمى ضرب من ضروب المعرفة ، ثم هو قد أتبع ذلك بسلسلة متلاحقة متواصلة من التساؤلات : «ما النفس ؟ وما كمالها ؟ وما الذى استفادت فى هذا المكان ؟ وبأى شىء باينت الروح ؟ وما الروح ؟ وما صفتها ، وما منفعتها ؟ .. وما الإنسان ؟ وما حده ؟ وهل الحد هو الحقيقة ، أم بينهما بون ؟ .. وما العقل ؟ ومـا أنحاؤه ، وما صنيعه ؟ .. وما الفرق بين الأنفس» .. ثم هو لم يقتصر على هذه التساؤلات ، وإنما اهتم بالجانب النفسانى والأخلاقى للإشكال البشرى .

ونعرف قيمة ما كتبه التوحيدى عن الصداقة والصديق ، وبرغم رؤيته التشاؤمية ، حين نلم بأنه على مدى أكثر من قرن من الزمان (٣١٠/ ٤١٤ هـ) ، احتك وعاشر طوائف مختلفة مـن الناس ، وطرق العديد من المجتمعات المتباينة ، واكتسب على مدار عمره الذى امتد مائة وأربعة أعوام ـ اكتسب خبرة واسعة بأمور ونفوس الناس ، فامتلأت كتبه ورسالاته بملاحظات

سيكولوجية دقيقة ، ونظرات أخلاقية عميقة ، وجاءت كتاباته دليلا على عمق فهمه للطبيعة البشرية ومقدرته على النفاذ إلى أعماق النفس الإنسانية ؟

أما عن نظرته التشاؤمية ،فواقع لا بد لقارئ التوحيدى من وضعه فى اعتباره ،وكانت هذه النظرة حصاد ما مربه من أزمات ، وعاناه من صعاب وشظف وجفوة وجحود وهجران حتى أحرق كتبه سنة ٤٠٠ هـ ، وكان يمكن أن تضيع نهائيا لولا المخطوطات المتفرقة التى كانت عند هواة الاقتناء فحفظت هذا التراث الهائل النفيس الذى يعبر عن قيمة التوحيدى ومنزلته الرفيعة فى الأدب والفكر العربى. آية منزلته ، أن مجلة «فصول «أرفع ما قدمته وتقدمه وزارة الثقافة من دراسات نقدية متميزة ، قد أفردت ثلاثة أعداد كاملة (العددان ٣ ، ٤ من المجلد ١٤ ، والعدد ١ من المجلد ١٥) لدراسة وتناول حياة وإنتاج أبى حيان التوحيدى ، وجرى ذلك على خلاف سُنَّة المجلة ، مع أن التوحيدى قد غادر الدنيا من ألف عام دون أن يترك بطانة أو شيعة تروج له .

أعود إلى رسالة التوحيدى : «الصداقة والصديق» .. وفيها جمع معظم ما كتب عن الصداقة والصديق شعرًا ونثرًا ، ولم يقتصر على العرب فى الجاهلية والإسلام فحسب ، بل امتد استقصاؤه إلى اليونان والفرس وغيرهم ، ويورد الأستاذ الدكتور زكريا إبراهيم فى كتابه الضافى الذى كان رسالة حب وتقدير للتوحيدى، أنه كتب هذا المؤلف فى مرحلة متأخرة من حياته ، ولذلك غزرت مادته وتشعبت ، وكثرت فيه النظرات العميقة النافذة ، ولا تنحصر قيمته فى ذلك فحسب ولا فقط فيما احتواه من حكم عربية وأجنبية فى الصداقة والعشرة والمؤاخاة والوفاق ، وفى الخلاف والغدر والخيانة ، وإنما

طويت أيضا على تفرقات لفظية بالغة الدقة بين بعض التعبيرات المتشابهة التى شاع استعمالها كمترادفات، فضلا عما جاء بالكتاب من إنكار لمفهوم «الصداقة» بالمعنى الأرسطالى لهذه الكلمة .

تنعكس نظرة التوحيدى التشاؤمية حين تراه يبدأ رسالته بقوله : «وقبل كل شيء ينبغى أن تثق بأنه لا صديق ولا من يشبه الصديق» ..

أما مادة الرسالة فهى غزيرة عريضة متنوعة ، على القارئ أن يستقصيها بنفسه فى كل سطر من سطور الكتاب الذى كتب على سنن ذلك الزمان فى كثرة التنقل والمزج بين الطرائف والحكم والنوادر والروايات ، وسرعة الانتقال من الجد الصارم إلى النوادر والأشعار لتبسيط الصعب أو كسر الملل ، ولذلك فنفائس الرسالة موزعة متفرقة غير مبوبة أو مفهرسة ، شفيعها أن القارئ لها لا يعتريه ملل ولا يفقد أشواقه لمزيد من الإطلال على ما حوته .

ويبدو أن أبا حيان التوحيدى لم يكن يريد لرسالته حين شرع فى كتابتها أن تطول إلى هذا الحد الذى استغرقت طباعتها قرابة (٥٠٠) صفحة من القطع الكبير ، لذلك نراه يعتذر فى خاتمتها عن كثرة الإسهاب ، وهو إسهاب ظنى أنه رد فعل لخيبة أمل التوحيدى فى الناس بعامة ، وفيمن ظن أنهم أصدقاء بخاصة ، ومما عاناه من عدم التجانس مع أهل عصره ، حتى أحرق كتبه وكفر بالصداقة والأصدقاء !

يروى التوحيدى فى رسالته عن الصداقة والصديق ، أن فيلسوفا سئل ذات يوم : «من أطول الناس سفرًا ؟ !» فأجاب : «من سافر فى طلب الصديق »!!

ومع ذلك لا يحرم التوحيدى قارئه من إعلاء شأن الصداقة ، فهى ليست مجرد صلة نفعية تقوم على الأخذ والعطاء ، وإنما هى رابطة شخصية تقوم على التبادل النفسى والتجاوب الروحى . إن «الصداقة» تتميز عن «العلاقة» بأنها أعمق فى مسالك العقل ، وأدخل فى باب المروءة ، وأنزه عن آثار الطبيعة .

ولكن .

أين ولّت الصداقة ـ وطار الأصدقاء ـ هذه الأيام ؟!!!

*****